الخطبة الرابعة والتسعون
التذلل والافتقار إليه تعالى

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ ومن تبعه إلى يوم القيامة، أما بعد:

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «ليس الغنى عن كثرة العَرَض ولكن الغنى غنى النفس» مسلم (1501)، وقال تعالى: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ [هود: 11/ 56]، كل ما يدب على الأرض فهو دابة إن كان حيوانًا أو إنسانًا، وكل ما على الأرض في قبضته وتحت سيطرته وقهره.

﴿إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ إن الله عليم حكيم بما خلق وبما قدر، كل دابة هو آخذ بناصيتها بالعدل والحكمة وكامل المعرفة بما تستحقه وبما يلزمها لا يستطيع أحدٌ أن يرى خللاً أو عيبًا، قال تعالى: ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ [الملك: 67/ 3].

مهما بلغ الإنسان من قوة ومهما بلغ من غنى، ومهما بلغ من أي شيء، فهو في كينونته وفي خلقته وفي جميع إمكانياته ضعيف، أي شيء يؤذيه، أي شيء يؤلمه، وأي شيء يؤثر فيه، هذا الإنسان في خلقته مهما كانت وكيفما وصفت فهو عبد مملوك لسيده، قد يظن -لأنه غافل- بأنه ليس عبد، ولكن ظنه خاطئ ولا عبرة به، الإنسان أي إنسان هو مخلوق وكل أمره وكل شأنه بيد خالقه اعترف أم أنكر، أنا عبد بخلقتي، حركة دمي وقلبي وأعصابي وأعضائي وكل خلية في جسدي بيد خالقي ومُوجِدي، أنا لا أملك شيئًا ولا أستطيع التصرف في شيء، وأنا أتحرك وأتصرف ضمن ما يسمح لي به خالقي، أقوى الأقوياء، وأغنى الأغنياء، يصيبه مرض فيصبح مشلولاً عاجزاً لا يقوى على شيء وإذا لم يشفه الله تعالى -خالقه وموجده ومُكَوِّنَه- فلا شافي له، وأذكر أن شارون وزير

الحرب الإسرائيلي بعد أن كان يزأر ويتكبر ويتهدد ويتوعد نام فدخل في غيبوبة، لم يستطع أن يصحو منها، جمعوا له أكبر الأطباء والأخصائيين وعالجوه وأعطوه ما لم يعط أحداً من العالمين، لقد خضع لعملية جراحية لمدة سبع ساعات لتخفيف الضغط في الدماغ (Haemorrhage) ثم أخضعوه لسبع عمليات جراحية خلال بضعة أشهر وأزالوا ثُلُثَ أمعائه، وبقي إريال شارون ثماني سنوات في هذه الحالة حتى مات، اجتمعت له الدنيا فلم تُفده شيئًا ولم تنفعه، هذا ما قاله ابنه (جيلاد).

أعود فأقول: يجب علينا أن نعلم وأن نعيش وأن نتصرف ضمن هذه المنظومة والمعلومة والحقيقة، وهي: أنا عبد وأنا مُلكٌ لخالقي وأنه المتصرف فيَّ، ويجب أن أتقرب إليه وأتذلل إليه وأتضرع إليه، فأنا فقير مفتقر إليه سبحانه، فهو مالك أمري وجسدي وعقلي ورزقي وحياتي ومماتي وكل ما في الدنيا والكون وكل ما تستطيع تصوره. قال تعالى: ﴿قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [المؤمنون: 23/ 88]، وقال تعالى: ﴿فَسُبْحَانَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [يس: 36/ 83]، وقال تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٢٠﴾﴾ [المائدة: 5/ 120].

ووصف الله سبحانه وتعالى الإنسان بقوله: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾﴾ [العلق: 96/ 6-7]، أي: إن الإنسان يعتقد أنه إذا صار غنيًا أصبح قويًا قادراً، فيطغى ويتجاوز الحد، ويعتقد أنه قادر وينسى أنه عبد محتاج لربه وخالقه، لذلك نرى رسول الله ﷺ يعلم أغلى إنسان على قلبه وهي السيدة فاطمة رضي الله عنها وأرضاها: «ما يمنعك أن تسمعي ما أوصيك به؟ أو تقولي إذا أصبحت وإذا أمسيت: يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث أصلح لي شأني كله ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين» ن - ك - السلسلة الصحيحة (227) عن أنس، وعن أبي بكرة رضي الله عنه قال ﷺ: «دعوات المكروب، اللهم رحمتك أرجو فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين، أصلح لي شأني كله لا إله إلا أنت» حم - د - صحيح الجامع (3388).

فالإنسان مهما بلغ، ومهما صار، ومهما عَلا، ومهما غَنيَ، ومهما قَويَ، ومهما تعلم، ولو بلغ العلى في كل شيء، فهو عبد ولا يستغني عن ربه ولا عن فضله ولا عن معونته ولا عن كرمه طرفة عين ولا أقل من ذلك، برحمتك أستعيذ دائماً وأبداً أنا فقير إليك يا ربي، بيدك إصلاح شأني كله ما علمت منه وما لم أعلم، ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين، أنا لا أعلم الخير ولا أعلم ما فيه صلاحي، قال تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: 1/ 5]، والتضرع له أصل جميل (فَضَرَعَ) أي: ذلَّ واستكان، وجاءت من: الضَّرع، وإذا رأيت صغير الحيوان يلتقم ضرع أمه فيدخل تحتها ويرفع رأسه، وإذا مشت يلحق بها ويجتهد حتى يرضع من أمه ولا يكل ولا يمل دائماً في مجاهدة، لأن لبن أمه فيه حياته وفيه غذاؤه. وجاء التضرع إلى الله بمعنى الذل والافتقار والخضوع والإلحاح والالتجاء إلى الله تعالى: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ۝٥٥﴾ [الأعراف: 7/ 55]، وإن الله سبحانه وتعالى يمتحن الناس ويبتليهم ويُذكِّرهم به سبحانه وتعالى، وحتى يعلموا أنهم تحت قوة قاهرة، وحتى يعودوا إليه ويتضرعوا إليه ويلتزموا بأمره وشرعه، فهذا من رحمته سبحانه وتعالى بهم ولكن هل من متعظ؟ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ۝٤٢ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٤٣﴾ [الأنعام: 6/ 42-43].

ولو نظرنا في سيرة سيد الخلق عليه أفضل الصلاة والسلام لوجدناه متضرعاً إلى الله تعالى في كل أوقاته في السلم والحرب وفي الشدة وفي الرخاء، لأن حالة التضرع والافتقار إلى الله تعالى هي الحالة الحقيقية التي يجب ألا ينفك عنها الإنسان، لأنك عبد شئت أم أبيت، هذه كينونتك وخلقتك وحالك. فعن أبي أمامة الباهلي (صديّ بن عجلان) قال: قال رسول الله ﷺ: «عرض عليّ ربي عزوجل أن يجعل لي بطحاء مكة ذهباً فقلت: لا يا رب، ولكن أجوع يوماً وأشبع يوماً، فإذا شبعت حَمِدْتُكَ وشكرتك، وإذا جُعْتُ تضرعت إليك ودعوتك» شعب الإيمان للبيهقي - الطبراني في الأوسط.

وكان عليه الصلاة والسلام يدعو عند الكرب: «لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله رب العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السموات والأرض ورب العرش الكريم» متفق عليه.

وقالوا: احتج إلى من شئت تكن أسيره، واستغن عمن شئت تكن نظيره، وأحسن إلى من شئت تكن أميره. فأنا دائم الاحتياج إلى الله تعالى، ولذلك أنا دائماً وأبداً أسيره وعبده، والخلق كلهم أنا مستغن عنهم، لأنهم عبيد لله تعالى ولا يستطيعون فعل شيء إلا بأمره، فعلاقتي معه جل وعلا وليست معهم فهم عبيد. انتهى، قال تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾﴾ [يونس: 10/ 107]، وقال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الزمر: 39/ 38].

فعلام الالتجاء والخضوع إلى الخلق، إذا آمنت بكلام ربك، إذا أيقنت به فكل شيء بيده وهو مالك الملك، وهو المتصرف في كل شيء، إن يُرِدْكَ بخير فلا راد لفضله، عن أُبي بن كعب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أبا المنذر أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم؟» قلت: الله لا إله إلا هو الحي القيوم، قال: فضرب في صدري وقال عليه الصلاة والسلام: «لِيَهْنَكَ العلم أبا المنذر» حم - مسلم، قال عن آية الكرسي: «والذي نفسي بيده إن لها لساناً وشفتين تُقدسُ الملك عند ساق العرش» حم - صحيح، وقال ﷺ: «لكل شيء سَنام وإن سنام القرآن سورة البقرة وفيها آية هي سيدة آيات القرآن، هي آية الكرسي» الترمذي.

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾: الحيّ ذو الحياة الكاملة، المتضمنة لجميع صفات الكمال لم تسبق بعدم، ولا يلحقها زوال، ولا يعتريها نقص بوجه من الوجوه، (القيوم): القائم بنفسه المستغني عن كل شيء ولا يحتاج إلى شيء،

وغيره سبحانه وتعالى لا يقوم بنفسه بل الكل محتاج إليه ومفتقر إليه وخاضع إليه ومتوكل عليه، مادة (حياة): كل شيء وقوام كل شيء بيده عزوجل، القائم بنفسه، والقائم على غيره، قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾ [الروم: 30/ 25].

(الحيّ القيوم): من الأسماء العظيمة جاءت:

1. في آية الكرسي: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ ﴿٢﴾﴾ [آل عمران: 3/ 2].
2. سورة طه: ﴿۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾﴾ [طه: 20/ 111].

وقال أهل العلم: يجب أن يتوسل الإنسان بهما، لأن هذان الاسمان (الحي القيوم) فيهما الكمال الذاتي: (الحي)، والكمال السلطاني: (القيوم)، فكلما ذلت نفسك لله وتَضَرعت لله واستكنت لله؛ كان دعاؤك أقرب إلى الإجابة، فالخضوع والتضرع سبيل القبول والإجابة، فالفقر فقران:

1. فقر اضطراري كوني مُلكه، وكوني عبد، وكوني تحت مشيئته وتصرفه، وكوني أعيش ضمن نظامه وسنته فلا أرى ولا أتنفس ولا آكل ولا أتصرف إلا ضمن هذا الكون الذي خلقه ربي فأنا عبد وأنا فقير:

1. فقير إلى ربوبيته لأنه الرب، هو الرازق وهو العاطي وهو الذي ينزل المطر ويُجري الرياح ويُشرِق الشمس.

2. فقير إلى ألوهيته فتشريعه فيه العدل وفيه الحكمة وفيه الخير لكل البشر، تشريعُهُ فيه سعادتي الدنيوية والأخروية.

وفهمنا ذلك من رسول الله ﷺ فقال: «لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى بن مريم إنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله» رواه البخاري.

وقد ذكره الله تعالى في أشرف المقام، وهو مقام العبودية، مقام الإسراء، ومقام الدعوة، ومقام التحدي. فقال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ [الإسراء: 17/ 1]، وقال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن: 72/ 19]، مقام الدعوة،

وقال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [البقرة: 2/ 23]، مقام التحدي. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [فاطر: 35/ 15].

أنا فقير إلى الله فقر اضطراري ذاتي لا فكاك منه ولا مهرب منه هذه نقطة أولى، والنقطة الثانية: والله هو الغني الحميد، الحي القيوم مالك الملك.

2. وفقر اختياري وهو العبادة الاختيارية الطوعية الإرادية إلى الله تعالى، عبادة حب وخوف، عبادة تضرع وتذلل والتجاء، عبادة رهبة ورغبة، عبادة فقرية اضطرارية وعبادة طوعية اختيارية، فهو سبحانه المستحق لأنه رب العالمين ورب الملكوت كله، وهو الحليم اللطيف الخبير. عن بُسر بن جَحَّاش رضي الله عنه قال: إن النبي ﷺ بصق يومًا في كفه فوضع عليها إصبعه ثم قال: قال الله تعالى: ابن آدم أنى تعجزني وقد خلقتك من مثل هذه، حتى إذا سويتك وعدلتك مشيت بين بردين وللأرض منك وئيد، فجمعت ومنعت، حتى إذا بَلَغَتِ التراقيَ قلت: أتصدق وأنى أوان الصدقة؟!) حم - ابن ماجه، (الوئيد): صوت شدة الوطأ أو المشي على الأرض، (التراقي): عظام بين النحر والكتف، (بردين): ثوبين. ومعنى الحديث: أن الله تعالى خلقك من نطفة مهينة كالبصقة، ثم سواك الله تعالى وعدّلك وأصبحت رجلاً مهمًا محترمًا تمشي وتتبختر خيلاءً، وجمعت المال وأعطيت ومنعت، حتى إذا جاءك الموت وصارت روحك إلى نحرك تذكرت وقلت: أتصدق الآن، وأنت تشرف على الموت تتصدق؟! هلّا تصدّقت عندما كنت صحيحًا معافى؟

قال تعالى: ﴿وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾﴾ [العلق: 96/ 19]، اسجد يا عبد الله واقترب من الله، املأ قلبك تضرعًا وتذللاً ادعُهُ في سجودك: اللهم اغفر لي وارحمني وارزقني وعافني واعفُ عني وثبتني بقولك الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا، ربِّ إني لما أنزلت إليَّ من خير فقير، اللهم زدني ولا تنقصني، اللهم أعطني ولا تحرمني، وعن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يقول إذا ركع:

«اللهم لك ركعت وبك آمنت ولك أسلمت خشع لك سمعي وبصري ومخي وعظمي وعصبي، وإذا سجد قال: اللهم لك سجدت وبك آمنت» أبو داود والنسائي – حم، وقال عليه الصلاة والسلام: «فأما الركوع فعظموا فيه الرب عز وجل، وأما السجود فاجتهدوا في الدعاء فقَمِنٌ أن يستجاب لكم» (974) مسلم.

فالخشوع للقلب وللجوارح والدعاء الخالص بالتذلل والافتقار والتضرع إليه سبحانه وتعالى، هذا يتأتى بأمرين جمعهما الله تعالى في آية فاطر: ﴿۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [فاطر: 35/ 15].

1. نحن الفقراء إلى الله دائماً وفي كل لحظة.
2. والله هو الغني الحميد، الله سبحانه هو الغني الغنى المطلق وهو الحميد على كل شيء وهو الحي القيوم لا يحتاج لشيء البتة وكل شيء وكل خلقه محتاج إليه سبحانه، قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ [الأنعام: 6/ 91]، وقال تعالى: ﴿مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾ [الحج: 22/ 74]، وقال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزمر: 39/ 67]، ما قدروا الله حق قدره (3) مرات في القرآن، لترى يا عبد الله تقصيرك في فهم واستيعاب عظمة الله سبحانه، قال عليه والسلام: (يطوي الله السموات يوم القيامة ثم يأخذهن بيده اليمنى، ثم يقول أنا الملك أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟ ثم يطوي الأرض بشماله ثم يقول: أنا الملك أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟) مسلم (8872) – البخاري مختصراً (2147).

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين اللهم آمين